صحة الانسان والحيوان والنبات

وعلاقتها بانحطاط التربة المصرية

إن ما أصاب التربة المصرية من الارتشاح والانحطاط وخاصة فى أقاليم الوجه البحرى يرجع إلى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . ففى هذه المدة كثرت مشروعات الرى . وكانت الخطة الاقتصادية الوحيدة التى تسير عليها الحكومة هى إيجاد أكبر مقدار من محصول القطن الذى كانت تحتاج اليه المصانع البريطانية والأوربية . وفى تلك السنين كانت العقدة القائمة فى هـذا التوسع القطنى هى توفير المياه للرى ، فأصبح هذا الاتجاه اندفاعا وصارت الزيادة فى الزراعة القطنية لاتعنى شيئا سوى زيادة مياه الرى . ومن هنا هـذه المشروعات التى جعلت وزارة الأشغال أكبر وزارة فى النفقات وصارت مشروعاتها تتناول السودان كما تتناول مصر . وبين أيدينا ونحن نكتب هذه الكلمات كتاب ضخم عن الرى وضعه السر وليم جارستن فى ٦٣٦ صفحة حوالى عام ١٩٠٤ فى بحث مشروعات الرى فى مصر والسودان لتوفير المياه لزراعة القطن فى مصر هو "الدليل فى موارد أعالى النيل" وليس فى هذا الكتاب الضخم صفحة لا بل ولا سطر واحد عن الضرر الذى قد يصيب التربة المصرية من وفرة المياه ، وما ربما ينشأ من هـذه الوفرة من الأضرار بالنبات والحيوان والانسان ، وذلك لأن الاتجاه نحو توفير المياه لزراعة القطن أصبح اندفاعا بل اندفاعا جنونيا عميت فيه الأبصار والبصائر عن المصالح الاقتصادية والانسانية الأخرى .

بل الحق أنه منـذ عام ١٨٠٠ الى حوالى ١٩٣٠ أى نحو ١٣٠ سنة لم تفكر الحكومة فى الريف إلا من حيث قيمته الاقتصادية وتوفير جميع الأحوال الملائمـة لزراعة القطن . والمتأمل لهـذا النبات تخطر بذهنه جميع الكوارث الحـاضرة التى يكابدها الفلاحون . فان الاندفاع فى زراعة هذا النبات هو علة الارتشاح المـائى الذى مرضت به التربة المصرية . وهـذا الارتشاح هو الذى شرعنا منذ سنوات قليلة نعالجه بحفر المصارف . وسوف ننفق ملايين الجنيهات لتصحيح الأخطاء التى وقعنا فيها باغراق التربة المصرية بالميـاه فى مدى أربعين سنة ، فى حفر هذه المصارف التى يمكن الاستغناء عنها كما سنرى بعد .

وارتشاح المـاء فى التربة يعود بأضرار مختلفة ، فانه يمنع تشققها ونفوذ الهواء والضوء إلى أعماقها فلا تتحلل ولا تكسب ذلك السماد الطبيعى الذى تمتاز به التربة الجافة المتشققة ولذلك تنقص خصوبتها . ثم إن دوام المياه فيها يجعل الديدان ويرقات الحشرات تعيش

فيها على مدى السنة كلها ، وكانت هـذه الديدان واليرقات تموت بالجفاف . فان لجميع الحشرات أربعة أطوار فى حياتها هى البيضة ثم اليرقة التى تشبه الدودة ثم العذراء أى اليرقة المختبئة أو النائمة داخل نسيجها ثم الحشرة الكاملة ، و إذا انقطعت حلقة واحدة من هـذه السلسلة فان الحشرة تموت . وكان الجفاف يقطع هـذه السلسلة وكانت الحشرات لذلك قليلة قبل أن تتشبع التربة بالميـاه حتى كان الفدان المزروع بالقطن يخرج نحو ١٢ قنطارا . أما الآن فان شجرة القطن لا تجد الخصوبة السابقة فى الأرض ولا تمتد جذورها إلى الأعماق لأنها تجد المـاء على الطبقات القريبة من سطح التربة ثم هى موبوءة على الدوام بالحشرات . ووفرة المياه قد جعل الأملاح تصعد إلى السطح وتحول دون ظهور النبات لأن الملح معقم .

وهذه الرطوبة التى عمت التربة المصرية قد أتاحت لدودتى البلهارسيا والانكاستوما ولحشرة البعوض أن تعيش على طول السنة . وكان الجفاف يقطع سلسلة حياتهن . ولكن الرطوبة وصلت حلقات هذه السلسلة ، ولذلك أصبح كل فلاح تقريبا فى الوجه البحرى مصابا بهاتين الدودتين أو بإحديهما وصار دمه منزوفا وقوته خائرة لايستطيع الجهد الزراعى المثمر .

والمـاشية كذلك تفشت فيها الأمراض التى نشأت من هـذه الرطوبة . فان الدودة الشريطية مثلا تصيب البقر ، وهى تحتاج إلى أن تتصل حلقات حياتها بين الانسان والحيوان ، ولو كانت التربة جافة لانقطعت سلسلة حياتها ، وهكذا الشأن فى أمراض أخرى .

ويمكن على وجه التلخيص أن نقول إن الاندفاع فى توفير المياه للرى قد أشبع التربة بالميـاه فنشأ عنهـا :

(أولا) نقص خصوبتها بارتفاع الأملاح إلى السطح وانسداد شقوقها وبرودتهـا ، فقلت المحاصيل لذلك .

(ثانيا) توافر الحشرات التى تصيب النبات .

(ثالثا) توافر الحشرات التى تصيب الحيوان .

(رابعا) توافر الحشرات التى تصيب الفلاح .

والآن تتجه وزارة الأشغال إلى إيجاد المصارف لتجفيف التربة التى أفسدتها المياه ، وهذا تصحيح لإفساد سابق . ولكن المصرف ليس الدواء الناجع . ونحن فى مصر نستغل الأرض ونحاسب عليها بالشبر ، والمصارف تتحيز جزءا كبيرا من التربة المصرية الغالية يجب أن يحسب ثمنه فى الثروة العـامة ، ثم هذه المصارف تجرئ المزارعين على الافراط فى استخدام المياه .

ويجب ألا ننسى أننا حين نغسل الأرض من الأملاح المضرة كذلك نغسلها من الأملاح المفيدة ، فان السماد العضوى الذى يجب أن تنتفع به التربة بضع سنوات يزول عنها إلى المصارف فى أقل من سنة . وخير من انشاء المصارف وماتكلفه الحكومة والأمة من تكاليف باهظة فى الحفر والصيانة والتعطيل عن الزراعة بما تحجز من مساحات كبيرة — نقول انه خير من ذلك أن نمنع رى الراحة منعا باتا فى جميع أنحاء القطر . فيجب ألا تصل المياه فى المجارى والقنوات إلى أعلى من متر ونصف متر بينها وبين مستوى التربة التى حولها . وبذلك تجف التربة . وتستعيد خصوبتها وتزول الحشرات التى تعيش فيها . ولسنا ننكر أن المزارعين عامة سيشكون من نظام كهذا إذا عمم ، ولكنهم يشكون لأنهم لم يستعدوا بالآلات لهذا الرى ، ولكنهم عندما يستعدون له سيجدون أن مايكلفهم هذا الرى من نفقات لايبلغ عشر ماسوف يربحون من الزيادة فى المحصولات بل الزيادة فى صحة الفلاحين وصحة الماشية .

كذلك يجب منع زراعة الرز إلا من الأقاليم التى لم تزرع قط والتى يراد استصلاحها . فان هذه الزراعة هى التى عممت حمى الملاريا بين الفلاحين إلى جنب مرضى البلهارسيا والانكلستوما . وقد أتيحت لنا زيارة عزبة قريبة من الزقازيق فوجدنا أن طنين البعوض لا ينقطع عنها طول الليل لأن مياه الرز المزروع بالقرب منها كان منبتا ومحضنا ليرقاته .

إنه ليس من حقنا أن نكسب من الزراعة إذا كان هذا الكسب يرافقه خسار فى صحة الفلاح لأن الإنسان أهم وأنفع وأسمى من النبات والحيوان . فاذا كانت الخطة التى سرنا عليها قد أفسدت الزراعة كما أفسدت الصحة والاجتماع فاننا يجب أن نسارع إلى الاقلاع عنها وأن نتخذ خطة أخرى .

وصف الحياة الدنيا

إنما الدنيا شجون تلتقى ... وحزين يتأسى بحزين

ضحك الدنيا احتشاد للبكا ... وأغانيها معدات الأنين

شوقى